مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

طبيعة الرؤية المحمدية

الفصل الأول من كتاب: ما هو الإسلام

تأليف: مونتجمري وات
ترجمة الأستاذ محمد فتح الله الزيادي
كلية الدعوة الإسلامية - الجماهيرية العظمى

1 ـ أساس الدين:

لقد شاع في القرن التاسع عشر افتراض مؤداه أنه لكي تكتشف حقيقة شيء ما فإن ذلك يستلزم أن ننظر إلى بواكيره وأشكاله الأولى، وكان هذا الافتراض ملائماً في زمن يتسم بالتغير السريع فكلما كان استحداث تعديلات جذرية أمراً لا مناص منه، نبذت أنماط قديمة عديدة، وأصبح من السهل الاستخفاف بشعيرة من الشعائر أو طقس من الطقوس التي استنكرها المصلحون باعتبارها ضرباً من ضروب الحياة البدائية المتوحشة.

والمعروف الآن ـ وهذا ما نأمله ـ أن هذا يشبه قولنا إن شكسبير طفل بحق لأنه كان كذلك ذات يوم. فليس شكسبير مجرد طفل شب، وليست ديانات العالم الكبرى اليوم مجرد همجية بدائية في ثوب أكثر تعقيداً. فإذا أردنا أن نعرف حقيقة الأديان فعلينا أن ننظر إليها في أوج تجليها.

ولو سئلنا عن الفرق بين البوذية والهندوسية والإسلام والنصرانية فإننا ربما نشير إلى المكانة الرئيسية لعقائدها القطعية، وقد يبدو هذا الأمر حتى الآن سطحياً إلى حد ما إذ نشعر بأن ثمة فوارق أكثر جوهرية وأساسية فالفرق أعمق بكثير من الصيغ اللفظية وهو يكمن إلى حد ما في جوهر الدين. وصميم الدين وجوهره هو ما أعنيه من لفظة الرؤية، فرؤية دين من الأديان هي منهجه في النظر إلى العالم والتعامل معه، وهي جوابه الرئيس عن التساؤل الآتي: ـ ما الحياة؟ وكيف نعيشها؟ والجوانب النظرية والعملية للسؤال والجواب كليهما غير قابلة للانفصال لأن كلاً منها يكمل الآخر.

وقد نميل في الكلام عن الرؤية إلى التفكر غالباً في الملامح النظرية وليس هذا عيباً شريطة أن نتذكر أن النظرية لا تنفصل عن التطبيق، وجوابي عن السؤال: ما الحياة؟ لن يكون جواباً صحيحاً ما لم أمارس الحياة تماماً كما أعتقدها. فالرؤية في أية ديانة، ولنقل الديانة البوذية مثلاً لا يمكن التعرف عليها من خلال صيغها الفلسفية واللاهوتية، وهذه وإن كانت بالفعل تعبيراً عن الرؤية إلا أن الرؤية أعمق من ذلك وأبسط. الرؤية الدينية لا يمكن أن تستوعبها الصيغ التي لا يتعدى التعبير بها مجرد خلق صورة لها في الظاهر أو مجرد إضفاء اللون على الصورة. والصياغات لا تعدو أن تكون بالتأكيد إشارة إلى السمة المميزة لهذه الرؤية ولكنها وضعت أو اختيرت بطريقة خاصة تستهدف الحث على الفضيلة بين الجماعة. والباحث اجتماعياً كان أو دارس تاريخ أديان يمكنه في الغالب الإشارة إلى ماهية الرؤية حتى ولو كان ذلك على سبيل الاختصار.

ويمكن القول بناء على ذلك إن الإسلام يبدو في هذا العالم كنظام فعلي مهما كان دقيقاً وصارماً فهو جيد ومناسب للإنسان، وحين يمتثل الإنسان لهذا النظام فإن ذلك يعتبر تقدماً حياتياً فضلاً عن أن سمة التقدم والتي هي ممكنة للحياة الإنسانية قد تكون بطريقة تسامياً مكانياً وزمانياً، ولبعض الأسباب قد يجد مؤرخ الدين في ذلك كفاية، وربما لأسباب أخرى قد يقتضي الأمر توضيحاً أكثر وربما تأكيداً مختلفاً.

ليس هناك تناقض بالضرورة بين التوضيحات المختصرة لهذا النوع والقوالب

الذهنية الرسمية للاعتقاد فكلاهما حقيقة ولكنها حقيقة بيانية. هذا الفهم البياني المتميز للأفكار الدينية ربما يوضح باختصار ـ كما كنت أوضحته في مكان آخر.

لقد شاع منذ زمن بعيد أنه في التعبيرات الدينية يجب فهم الكلمات غالباً في معان مجازية أو قياسية. ولسوء الحظ فإنه في العالم المعاصر أصبحت هذه تعني تضمينات مؤكدة للوهم وفي ذلك ما يمكن أن يكون حقيقة مجازية أشعر بأنها ليست تماماً حقيقة. ولتجنب هذا المجاز فإني اقترحت مصطلحاً (بيانياً). إذا وضعنا في الاعتبار الخريطة أو الرسم البياني فإننا نعرف أن الموضوع المرسوم لا يصور الحقيقة كما هي، فخريطة المدينة أو القطر ليست أبداً حالة محله، ومع ذلك وفي حدود المقياس والتلوين الخ... فإن الخريطة ستعرض ملامح أو مظاهر محددة للمدينة أو للقطر بحقيقة مطلقة. وتوضع الخريطة لأغراض مؤكدة محددة، ولنقل لترسم الطرق من مدينة إلى أخرى أنها تحقق هذه المهمة تماماً (على اعتبار أنها خريطة جيدة) ما دمنا نلاحظ هذه الاصطلاحات أو لا نلاحظها ـ وعلى سبيل المثال ـ لا أتوقع أن طريقاً رسمت بالأحمر على الخريطة ستكون بالتأكيد ذات سطح أحمر. ونحن ربما نظن أن الخريطة عبارة عن نوع خاص من الرسومات البيانية المعقدة أو أن الرسومات البيانية هي عبارة عن خريطة مبسطة. والكثير من الأفكار الدينية تعرض بهذه الطريقة. وهي تشير بنوع من العرف إلى قسمات معينة للحياة الإنسانية والكونية وهي إنما تفعل ذلك من أجل منح الإنسان الحياة السعيدة. وهذه المهمة ستحقق الأفكار تماماً ما دام الناس يراعون المصطلحات فبعض هذه المصطلحات من قبيل (يد الله) أو (وجه الله) لا تدل ضمناً على جسم بعظم ولحم ودم وبعض الملامح الأخرى التي يتصف بها الجسم الإنساني. وبعض آخر من هذه المصطلحات يحتم أن تفهم الأفكار بمحدودية. وبعبارة أخرى فالناس لهم الحق في الحياة السعيدة ولكن ليس من واجبهم التعلق بالحصول على معلومات نظرية عن الكون.

والعلماء المسلمون كانوا مدركين لهذه المشكلة وكثير منهم يصرون على أن خلع الصفات البشرية على الله يجب أن يفهم بلا كيف. أي بدون تحديد للحالة التي سنتناولها به. سواء أكانت حقيقية أم مجازاً.

وإذا نظرنا إلى ذلك من زاوية أخرى لقلنا إن الإنسان ربما يضع تطبيقاً مناسباً يجيب على مجموعة من الأفكار المتعلقة بمصطلح (يد الله) ولكنه سوف لا يكون قادراً على توضيح هذه الأفكار في لغة أخرى. وما يبدو أنها تعبيرات بديلة من قبيل الأوصاف المختصرة التي يقدمها العلماء والصياغات الرسمية لعقائده ليست مرادفات دقيقة ولكنها بنيت بيانياً على مبادىء مختلفة ولأغراض مختلفة ومع ذلك فهي تعبيرات لنفس الرؤية. وكما كان ذكر ضمناً فإن هناك تفريقاً بين الحقيقة أي وجهة النظر إلى الكون وبين التعبير الذهني أو اللفظي عن الرؤية.

ومن ثم سيؤدي ذلك وعلى المدى البعيد إلى التجسيد الاجتماعي للرؤية وهذا التصور للرؤية سيمكننا من تقديم تعريف ملائم لمقاصد العبادة أو إحيائها.

وربما نقول عن هؤلاء الذين سيشاركون فعلياً في الرؤية أنهم يدخلونها أو يتملكونها أو يقدرون قيمتها وهذه كلها أنواع من التشبث بأن الرؤية الدينية أكثر من معرفة ذهنية يستلزم قبولها كأساس للحياة. وهذه أيضاً ربما تساعد في فهم كيفية تلاشيها وقد يبدو ممكناً لأتباع الديانات الاكتفاء بالإدراك الذهني المحض للأفكار الدينية من غير الدخول في الرؤية الدينية نفسها.

وبما أن الرؤية هي النظرة إلى العالم والتعامل في آن واحد فإن ذلك يعني أنها شيء يجب أن يعاش ويعني أنها يجب أن تحتويها المادة على صعيديها الفردي والاجتماعي بوجه عام انطلاقاً من أن الإنسان حيوان اجتماعي.

بعض التعليقات لتوماس كارلايل ربما تتضمن رأياً مفاده أن التجسيد شيء أولي في الحياة الفردية وهو ثانوي أو نتيجة على مستوى الحياة الاجتماعية. وهذا ليس صحيحاً في معظمه حيث إن التأكيد على الفردية أتى من القرن التاسع عشر. فهذه سورة (قريش) وهي من أوائل السور القرآنية 106 تطالب قبيلة قريش التي سكنت مكة بأن تحمد الله على إنعامه عليها.

عندما تتلاشى الرؤية فإن ذلك يعني أن علينا العودة مرة أخرى لأصول التجربة الفردية ولكن ذلك سوف لا يكون مطبقاً بشكل واسع ما لم يتناول الفرد في إطار مجتمعه وهذا الفهم للرؤية يخولنا إعطاء توضيح منظم لوظيفة العبادة أعني

كإعادة أو تجديد للحقيقة. وهذا يتوافق مع آراء دوركايم التي ترى أن الوظيفة الحقيقية للدين هي أن تجعلنا نعمل وأن تساعدنا على الحياة وأن العبادة في شكلها الظاهري إنما هي مجموعة من المعاني المختارة التي يخلق بها الدين أو يعاد خلقه من حين إلى آخر.

2 ـ اعتماد الرؤية على غيرها:

أصبح العلماء في القرن التاسع عشر مولعين بالاستناد الأدبي والتاريخي وبعمومية أكثر مولعين بتعقب أفكار السلف وأعمالهم وهذه الصيحة كانت دون شك على علاقة إلى حد ما بالشهرة التي حققتها نظريات داروين في التطور وعلى الاعتقاد السائد بأنه إذا استطعت أن تصل إلى مصدر أو أصل الشيء فإنك ستعلم ماهيته أو حقيقته، وهذه الخطوات العلمية قد أساءت أحياناً وأدت إلى إيجاد أساس لحكم مستنكر على ما لا يرضاه الباحث ونتيجة لذلك كان قد صرح أو ذكر ضمناً أن القرآن إنما هو مجموعة من الأفكار الضعيفة المنتخبة من الإنجيل، وأن الفلسفة العربية ربيبة للفلسفة اليونانية، وأحكام كهذه كانت بالطبع مرفوضة من قبل المسلمين إذ إنها إساءة في الفهم وتشويه لما اكتشف ودراسة المصدر الأدبي لهاملت مثلاً والأصول التي أخذ منها شكسبير هيكل القصة ممتعة وتقود إلى النفاذ إلى أنواع مختلفة ولكنها لا تظهر لنا أين تكمن عظمة هاملت، وبعبارة أخرى دراسة المصادر والأصول سوف تروي ظمأنا الذهني وستظهر لنا شيئاً من الآلية أو الترابط الذي يمكن أن يلعب دوراً ثانوياً في عملية الخلق الأدبي، ولكن روح العمل الخلاق المبدع تفلت من مثل هذه الدراسات. ومن ثم إذا أخذنا القرآن على أنه غزو جديد في عالم الفكر الإنساني فلنحاول إعادة تقرير ذلك في إطار علاقته بالفكر الذي تسبقه الرؤية الإسلامية (التي يحتويها القرآن) أتت إلى أحد مواطني مكة حوالي 610 ميلادي وقاسمها مع بعض المواطنين من أتباعه. نحن نعلم الآن بعض الشيء عن المستوى الثقافي للمكيين في هذا الوقت إما من المعلومات التي ذكرت صراحة أو ضمناً في القرآن وإما من الشعر العربي قبل الإسلام وإما من القصص حول محمد وأصحابه، وسوف نواجه بعض المصاعب حول مصادر هذه المعلومات. القرآن دليل معاصر ولكنه يصعب أحياناً على التفسير. كما أنه في

بعض الأحيان يصعب التعرف على ما إذا كان شعر ما قبل الإسلام صحيحاً بالرغم من أن معظمه صحيح، والقصص التي تروى حول محمد تعكس صورة القرن الأول والثاني الإسلامي. وعلى الرغم من هذه الصعوبات فإن تصورنا للمستوى الثقافي المكي حوالي سنة 610 يبدو صحيحاً في شكله العام. هذا المستوى كان في جوهره صورة العالم المطورة بواسطة العرب نتيجة تجاربهم كبدو في الصحراء، وكان قد أضيف إلى هذا أفكار اليهود والمسيحيين والفرس والتي وصلت إلى المكيين بطرق مختلفة. حيث كان هناك مستوطنات يهودية في عدة مناطق عربية مثل المدينة وخيبر. أما التأثيرات المسيحية فقد جاءت من قنوات كثيرة، فبعض المكيين كانوا قد قاموا برحلات إلى الشام وكانوا على اتصال بموظفين وربما أيضاً برهبان، وكانت اليمن تحت الحكم الحبشي المسيحي طوال ما يقرب من نصف القرن السادس والتجار المكيون كانوا هناك وربما كذلك في الحبشة في الوقت الذي كانت فيه المسيحية منتشرة بين عدد من القبائل البدوية، أما الفرس فقد كان العرب على اتصال بهم أيام حكم اللخميين للحيرة (على الحدود بين الصحراء والمنطقة الخصبة للعراق) ومنهم نقلوا موادهم ومعارفهم الثقافية.

ونتيجة لكل هذه التأثيرات المتعددة فإن النظرة العالمية لأهل مكة كانت عبارة عن خليط بعض الشيء، ومع أنه كان قد بقي في الجزيرة العربية كثير من مزارات الآلهة الوثنية التي كانت مألوفة لدى عامة الناس فإن المكيين شأنهم شأن زعماء آخرين في الجزيرة لا يعتقدون في مثل هذه الأوثان. ويقال إن أبا سفيان قد اضطر لأخذ الأصنام اللات والعزى إلى معركة أحد ضد المسلمين ولكن هذه كانت دون ريب من أجل رفع معنوية الجمهور.

وقد علم المكيون أن المسيحيين واليهود عبدوا إلهاً واحداً متسامياً هو الله في لغة العرب وقد فتن بعض منهم بالتوحيد وعلى أية حال فإنه في بداية القرن السابع إذا حاولت أن تصبح مسيحياً أو يهودياً فإنك ستتورط سياسياً. فالمسيحية لها علاقة وطيدة بالإمبراطورية البيزنطية والحبشية أما اليهودية فلها علاقة أكثر تحرراً بالفرس. ومن أجل ذلك كان المكيون مجبرين عملياً على الإبقاء على علاقة طبيعية بدافع

المحافظة على تجارتهم مع اليمن الفارسية والشام البيزنطية (ومع ذلك وتحت ضغط متواصل كانوا يظهرون الولاء لجانب أو لآخر). إنه إذاً ليس مدهشاً أن قلة من المكيين كانوا مسيحيين. وهؤلاء الذين لم يكونوا راضين عن وجود فراغ ديني يقال إنهم كانوا يبحثون عن توحيد محض خالٍ من الارتباطات السياسية. وخير وصف لموقفهم أنهم كانوا يبحثون عن توحيد غامض ونظراً إلى أنهم يميلون إلى الاعتقاد في إله أسمى لم تكن لهم ممارسات دينية عملية ولم يعتبروا عقيدتهم منافية للكائنات التي تمثلها الأصنام.

كان في مكة أيضاً ضيق اجتماعي كبير حوالي 610 ويعزى ذلك عموماً إلى التغير من البداوة إلى التنظيم الاقتصادي وكان أسلاف المكيين من التجار بدواً لجيل أو جيلين فقط ولذا بدا خلال النصف الثاني من القرن السادس بدقة أكثر أنه بينما كان المكيون يحاولون حل مشاكلهم بواسطة التوحيدية الغامضة فإن هذه المواد التوراتية والتي كانت جزءاً من هذه المحاولات لم تكن موفقة تماماً. ونفس الكلام يمكن أن يقال على المواد العربية الموثقة في القرآن مثل قصص الأنبياء هود وصالح. والتفسير اللاهوتي المذكور حول هذه القصص ربما يكون على أقل تقدير جزءاً من عهد ما قبل الإسلام.

إن الدراسات الغربية الحديثة للأصول الأدبية هي في الواقع دراسات لأسلوب دقيق. في كل الظواهر الدنيوية هناك قدر ضروري من الاستمرارية حتى وإن وجد انقطاع ظاهر. وحقيقة أننا ـ وربما لأسباب معقولة ـ نهتم خاصة بالتغير المفاجيء أو بعامل الانقطاع ليست سبباً لتجاهل أو إنكار عامل الاستمرارية والقرآن نفسه لا يمثل اتجاهاً محدداً في الثقافة الإسلامية اللاحقة التي تبالغ في مسألة التواصل هذه.

أصالة الرؤية وجدتها

نحن نعتبر مؤقتاً الرؤية الإسلامية اقتحاماً جديداً من وراء الإدراك البشري إلى عالم الإنسان الذهني. حتى الآن وانطلاقاً من القرآن نفسه بالرغم من أنه من الكتب المقدسة في مجملها فإنه من الممكن أن يوصف بأنه اقتحام، جوهر الرسالة ليس مبتكراً.

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ [النساء: 163 ـ 164] هذه الآية يستشهد بها عادة على جوهرية التشابه بين الرسالات حتى وإن لم يكن تطابقاً كاملاً. وتوضح الآيات التي ورد فيها ذكر للأنبياء السابقين طبيعة هذا التشابه وعلى العموم هناك أسلوب معاد خلال هذه القصص مع اختلاف فقط في تفاصيل ثانوية. والمثال الذي يمكن التوقف عنده قصص نوح وعاد في السورة السابعة. ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: 58 ـ 59 ـ 60]. ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف: 64 ـ 65 ـ 66 ـ 67].

التشابه الوحيد في الرسالة هنا هو التأكيد على وجود الله على الرغم من وجود تشابه في مواقف الشعوب تجاه أنبيائهم من حيث صراعهم ومصائرهم. هذا هو التصور الشائع الموجود في القرآن حول علاقته بالرسالات السابقة أعني أن هناك تطابقاً في الجوهر وليس في التفصيل. منحى آخر للتصريح بالعلاقة أن نقول إن القرآن هو مؤيد (تصديق) للرسالات السابقة (سورة يونس 37 ـ 38) وعلى ذلك فالقرآن عنصر جديد وفي نفس الوقت هو تكرار لجوهر الرسالة القديمة.

ويصعب على الغربيين المعاصرين التفكير بهذه الطريقة حتى حين الإقرار بالتوافق الأساسي بين الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام. وهذه الصعوبة نتجت من إدراك الغربيين للوقائع التاريخية والعلاقات التاريخية وطبيعة الشواهد التاريخية.

وحيث إن الغربي يرى أن الأديان الثلاثة هي بمثابة نماذج للرؤية الإبراهيمية

فمن الأنسب اعتبار اليهودية والمسيحية والإسلام تطوراً كليّاً لتجربة إبراهيم، وفضلاً عن ذلك هناك استمرارية تاريخية مهمة بين اليهودية والمسيحية على الرغم من الإضافة المسيحية الجديدة. والغربيون يميلون إلى اعتبار أن هناك على الأقل قدراً ضئيلاً من الاستمرارية بين النموذجين القديمين للحقيقة الإبراهيمية والنموذج الأحدث. لقد كان هناك يهود ومسيحيون في الجزيرة العربية في وقت محمد وبالفعل فإن ورقة بن نوفل عم خديجة الذي عاش بمكة كان يدين بالمسيحية. بالإضافة إلى ذلك يجب أن نفترض أن العقيدة المسيحية واليهودية لم تنقرضا تماماً في المحيط العربي حيث نقلها ورقة وآخرون أمثاله إلى العرب ولكن بمحدودية. وقد يكون هناك سؤال مثير وهو هل قبل محمد نفسه بهذه الديانات وإلى أي مدى؟ فإن هذا لا يحول دون تميز تعاليم القرآن بالجدة إلا بقدر ما نال عيسى بسبب إعجابه باليهودية المعاصرة له. وشيء من هذا القبيل كان قد ذكر في الفصل السابق حول كون الحلول السابقة هي جزء من الحل الجديد الذي جسده القرآن. ومن زاوية أخرى يمكن اعتبار أن الرؤية الإسلامية قد ضمت إليها شيئاً من الرؤى القديمة.

وعلى الرغم من كل ما أمكن قوله تجاه نماذج الحقيقة الإبراهيمية الفريدة وعلاقة كل منها بالأخرى فإن خصوصية الرؤية الإسلامية تبقى مهمة وذلك يعني تلاؤم الحقيقة الإبراهيمية مع عالم الفكر المكي ومع مشاكل المنطقة الاجتماعية. تفاصيل صلة المكي والعربي بتعاليم القرآن سوف يتم تناولها خلال الفصول القليلة القادمة، وسوف نحتاج فقط إلى الإشارة إليها هنا باختصار. وهكذا فإن التأكيد على وجود الله وما يتضمنه من اعتماد الإنسان عليه يصحح غرور الزعماء المكيين وإفراطهم في الثقة بالنفس وقد خلقت تعاليم اليوم الآخر ضغطاً قوياً أثر على ذلك النمط من الرجال الذين دفعتهم أنانيتهم إلى التقصير في حقوق المعوزين من أقاربهم، والتشبث بمهمة الرسول هو الذي مكن من إقامة النظام السياسي في المدينة وعلى العموم يمكن القول إن قيمة الإسلام تأتي من مزجه القدرات البدوية المكتسبة مع نبوءات الحقيقة الإبراهيمية.

وأخيراً فإننا لا نستطيع فصل الرؤية عن واقعها التاريخي. إن أي محاولة لإبراز الديانة في صورة مختصرة سيكون شكلياً صحيحاً ولكن اختصار التعبير

(والتبسيط الشكلي) هو الأكثر إهمالاً لسمات الاحياء في الديانة. وللوصول إلى تقدير غني وكامل للديانة الإسلامية فإنه يجب ـ وخاصة على غير المسلم ـ أن يكون على اطلاع واسع بالواقع التاريخي وأن يعرف كيف أن جمهرة من أصحابنا قد وجدت في الدين الإسلامي هداية وإلهاماً في الوقت الذي كانوا يصارعون فيه المشاكل الحياتية العميقة التي تواجه معظمنا.

مصـدر الـرؤيــة

في نقاشاتنا السابقة اقتربنا من مصدر الصعوبة في القرآن، كيف يمكن للغربي الذي يؤمن بالله ولكنه ليس بمسلم أن يتعرف على بعض معاني العقيدة التي ترى أن القرآن كلام الله ووحيه. لقد حاولت بواسطة الحديث عن الديانة الإسلامية أن أخفف هذه الصعوبة، وأن أستثني النظرة الأوروبية السيئة القديمة التي ترى أن محمداً قد دعا عمداً إلى أفكار لا يؤمن بها في محاولة لكسب قوة سياسية ولإشباع غرائز وشهوات. لقد حاولت أيضاً أن أستعمل مؤقتاً مصطلح (دفع جديد) من أجل أن أبرز وجهات نظر سابقة للمشكلة قبل محاولة البحث عن الحل.

يمكن أن نبدأ باعتبار العملية الفعلية المتمثلة في تلقي محمد للقرآن ويمكن أن يكون هناك قليل من الجدل حول المظاهر الخارجية. لقد تلقى محمد آيات من الوحي في فترات متكررة منذ الوقت الذي أحس فيه أنه أصبح نبياً (مع استثناء فترة طويلة في البداية) وتختلف الآيات في طولها حيث كان بعضها يتراوح بين الكلمتين والاثنتي عشرة كلمة. ويبدو أن محمداً نفسه جمع بعض هذه الآيات معاً في سور ولكن الترتيب النهائي كان قد أعد من قبل لجنة من المختصين أثناء حكم الخليفة عثمان (56 ـ 64). ويبدو بشكل مرجح أيضاً أن محمداً كان يتلقى من وقت لآخر تعديلات لآيات معينة. فبعض الآيات كانت دون ريب قد قيلت ثم نسخت. وبالرغم من العناية التي أداها التنقيح العثماني فإن القراءات المختلفة ظلت تخرج إلى الوجود حتى عام 900 م ولم يقبل منها إلا سبع وهذه القراءات السبع متساوية في الحجية. ولعله من المفيد أن نسوق الآيات التالية لتوضيح المظهر الباطني

الباطني لعملية تلقي الوحي أو الآيات التي هي مجموع القرآن الذي بين أيدينا.

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾ [الشورى: 51].

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: 192 ـ 194].

إن حالات (كيفيات) الوحي ـ التي ذكرت هنا ـ مثل الوحي المباشر؟ الوحي من وراء حجاب، أو بإرسال رسول (وهو قد يكون الروح الملك) انتشرت على هيئة أحاديث (أو مختارات من النوادر حول محمد) وأخيراً حصرها المختصون في حالات مختلفة تتراوح بين الخمس إلى العشر. وهكذا فقد روي أن محمداً قال: كان يأتيني أحياناً مثل صدى الجرس وذلك كان أصعبه عليّ، ثم ينفصل عني وقد وعيت ما قال (الله) وأحياناً يأتيني في صورة الملك وأعي ما قاله. وروت زوجته المفضلة عائشة كيف كان يأتيه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتصبب جبينه عرقاً. وهذه التجربة على أية حال كانت فيما يبدو استثناء، أما الحالات الأكثر حدوثاً فهي دون شك تلك التي ذكرت في القرآن. وأما الإشارة إلى الروح والملائكة وأخيراً جبريل (البقرة 91 ـ 97) فيمكن أن تفهم على أنها شرح وليست تصويراً وعلى ذلك يمكن القول إن محمداً لا يعرف شكل الملائكة ولكنه ببساطة وجد الكلمات في قلبه بطريقة ما، وأخيراً قرر اعتبارها عملية قام بها جبريل.

وإحدى الكلمات المستعملة (لنزول القرآن) هي الوحي وهذه أصبحت الأكثر شيوعاً في المباحث العقدية في القرون الأخيرة. وقد درس ريتشارد بل بعناية استعمالات (هذا المصطلح في القرآن ليس بتقنية عالية) وعلى هذا الأساس حاول أن يذكر شيئاً أكثر دقة حول الإطار الداخلي للتجربة المحمدية. وفي حين أن حسابه قد يكون صحيحاً إلى حد ما إلا أنه ليس مقنعاً في التفصيل. لقد حمل كلمة الوحي أكثر مما تحتمل وأهمل مصطلحاً آخر أكثر استعمالاً وهو (نزل) أو أنزل ولعله من الأسلم القول بأنه أي دراسة تفصيلية لتجربة محمد الباطنية لا يمكن أن تكون أكثر من تخمين ولكن يبدو من المؤكد أن محمداً ظن نفسه قادراً على التمييز

بين الوحي ونتاج وعيه الذاتي.

«إنه رسول بعث إلينا بأنباء من الأزلي المجهول... مباشرة من حقيقة الأشياء الداخلية، هو يحيا ويجب أن يحيا في تفاعل يومي مع ذلك... إنه قدم من قلب العالم... إنه جزء من حقيقة الأشياء الأصلية».

«لم تكن كلمات النبي باعتباره إنساناً زائفة ولا حتى آثاره التي سنوردها بعد حين. وليس ثمة أثر لتفاهة أو مشابهة، إنها كتلة متأججة من الحياة نفثتها الطبيعة من صدرها».

«وكلمة رجل كهذا صوت مباشر ينبعث من قلب الطبيعة ذاتها».

هذه التعبيرات غير الدقيقة هي علامة على صعوبة المشكلة إذا بدأنا بالاعتقاد بأن تلقي محمد للقرآن هو من قبيل النشاط العبقري مثل الذي كتب به شكسبير هاملت فإننا مباشرة سنجد فرقاً. هاملت حقيقة ربما قيلت لتتضمن رؤية عن الحياة ولكنها لم تتضمن مجموعة من الأفكار القادرة على أن تصبح الأفكار الرئيسة للعالم ووجهة نظر الملايين من البشر. هذه واحدة من الحقائق حول القرآن والتي لا يجب أن تغيب عنا. أفكار محمد الرئيسة وديانته كانت برهاناً كافياً لهداية الملايين. وبينما معظم هذه الملايين كانت في المعدل أو تحته فإن آلافاً لا تعد ولا تحصى [حسب علمنا] استطاعت أن تستفيد من هذه المعيشة التي يعرفونها ونعرفها نحن ويرجع ذلك لخصوصية الرؤية الإسلامية التي حققت هذا؛ وليس من الواقع في شيء القول بأن هذا الإنجاز راجع إلى الديانة الإبراهيمية السائدة.

مشكلة الغربي أن رؤيته هذه تجعله يحاول التعبير عن حقائق متعددة في وقت واحد من غير الوقوع في تناقض. يجب أن نقوم بأبحاث واسعة حول حقيقة العقيدة الإسلامية ليس فقط لما حققته في حياة المسلمين ولكن أيضاً لما يمكن أن نتعلمه منها. وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نقبل تماماً المفهوم الإسلامي الذي يرى أن القرآن حقيقة مقدسة وأنه المقياس لكل حقيقة أخرى. وبالنسبة للجانب التاريخي الدقيق لا نستطيع أن نقر بأن القرآن يتجاوز القوانين المألوفة للبرهان التاريخي. ومن خلال بعض التوسع في التخيل الشكلي للحقيقة فإن حل هذه

المشكلة سيبدو أيسر إدراكاً. وثمة نقاط أخرى يجب أن تؤخذ في الاعتبار ـ على أية حال حين البحث عن صياغة ملائمة لما سبق ذكره. وعلى ذلك فإن العملية كلها ربما تؤول إلى الدائرة اللاهوتية ولا نستطيع أن نناقشها بفاعلية أكثر هنا.

أخيراً كلمة شخصية ربما تكون جديرة بالذكر. فنقاد كتبي حول محمد كانوا قد اتهموني بأنني لا أعلن وجهات نظري بوضوح، ومن المحتمل أنهم عنوا أنني لا أذكر صراحة ما يتفق مع وجهات نظرهم. وهناك أمر آخر وهو أنهم لم يستطيعوا بسهولة إدانة ذلك على أنه خطأ. وربما كنت قد تحاشيت حكماً ولكن الأمر صعب حين يكتب الإنسان لعدد كبير ومختلف من القراء الذين سيدركون ما عناه بطرق مختلفة. وربما أقول رأيي بالصورة التالية: أنا لست مسلماً بالمعنى المألوف وعلى الرغم من ذلك فإني آمل أن لو كنت مسلماً بمعنى مستسلماً لله، ولكن أنا أؤمن بأن الثوابت في القرآن والتعبيرات الإسلامية الأخرى هي بمثابة قصص عظيمة عن الحقيقة الإلهية التي سأظل أتعلم منها أنا وغيري الكثير.